

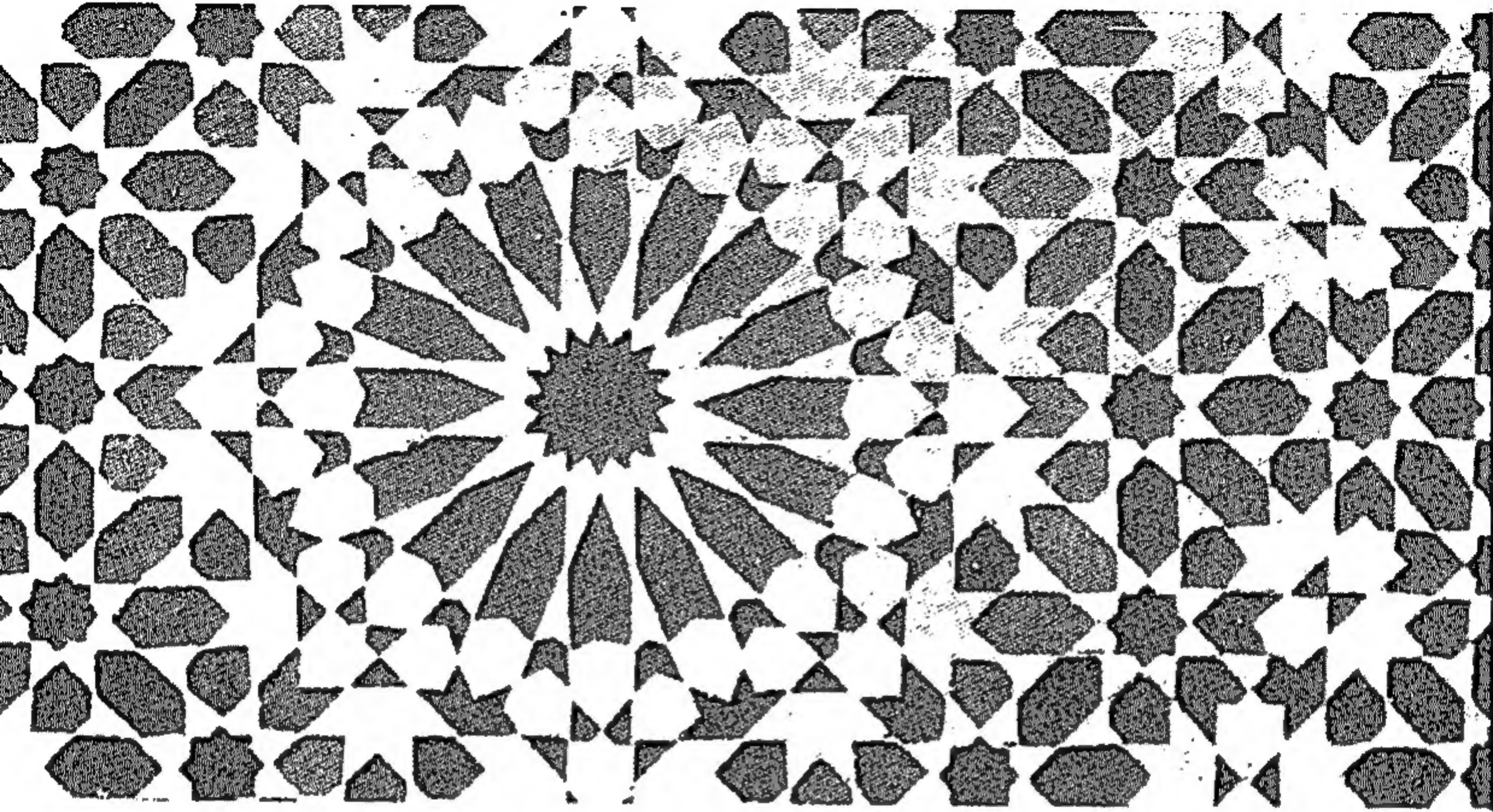
حول
النمط
الاسيوي
للانتاج

تاريخ النظام المصري

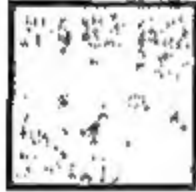
كتبي

الخلافة الفاطمية

العدد 121 76



مثل مصر، تشمل أقاليم المغرب الكبير (تونس والجزائر والمغرب الحالي) أراضي زراعية الى جانب مناطق صحراوية واسعة. ولكن لا يوجد فيها نهر ذو فيضان دوري منتظم مثل النيل. وفوق أوجه التشابه والاختلاف الطبيعية هذه، أضيف ترات اقتصادية واجتماعي وتاريخي ربط بين مصر والمغرب بأمور مشتركة في نفس الوقت الذي كان يباعد بينها بأوجه متباينة.



عندما فتح جوهر الصقلي مصر عام ٩٦٩م، لم يلق جيشه مقاومة تذكر، بل رحب به ممثلو المصريين بعد أن أعطاهم القائد الفاطمي أمان. وفي رأينا أن التوافق السريع الذي حدث بين الفئات العليا من السكان المصريين وبين خلافة القيروان عاد إلى أن هذه كانت رمزا لعلاقات اجتماعية وسياسية لا تختلف في صلبها عن تلك التي كان يتسم بها التكوين المصري، وإن فارقتها في ظلال هامة. ولقد كان ذلك التشابه هو الذي مكن الخلافة الفاطمية من مصر. أما الاختلاف، فكان السبب في الازدهار المصري في العصر الفاطمي الأول.



أولاً- النمط الآسيوي في المغرب

أ- نجد العنصر الأول

لنمط الآسيوي في التناقض

بين الصحراء والحضر (٢)

ففي العهد الذي سبق الفاطميين، كان سكان المغرب يتكونون أساساً من البربر، وتمتد أرضهم من واحة سيوة المصرية وبلاد برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن شواطئ البحر الأبيض شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوباً. وكثير ما أطلق الكتاب العرب عليها اسم «جزيرة المغرب» وقد عرف سكان وادي النيل غارات البربر (الليبو أو الليبين) في زمان الفراعنة، ولكن أغلب موجاتهم العادية كانت طوال التاريخ تبدأ من الصحراء متجهة إلى مصاب

العمال الحصبة في المغرب.

وكانت قبائل البربر تنقسم منذ زمن طويل إلى مزارعين مستقرين، وقبائل منتجة شبه رحل (مزارعين ورعاة) وثالثة رحل (رعاة). وقد ترتب على التفتت الإقليمي الجغرافي لبلاد المغرب، وعلى عدم وجود انهار كبرى فيها قابلة للملاحة أن تبقى العلاقات بين القبائل وبعضها قليلة وصعبة، مما أثار المراقيل أمام قيام أي سلطة سياسية موحدة في المغرب الكبير في العصور السابقة للقواطم. واشتهرت قبائل الصنهاجة المنتجة بمزارعها وغاباتها ومراعيها الدسمة وصناعاتها الحرفية في المراكز الحضرية. ولبطونها قطعان تملكها ملكية جماعية، وبينها علاقات نقدية وتبادل تجاري إلى حد ما رغم أن المواصلات بين القرى («الشر») قليلة وصعبة لمرورها على جبال مسالكها وعرة. وطبقاً للرواية العرب، كانت الصنهاجة (وكنانة من بطونها) تفخر بانتسابها إلى أصل غير بربري، وتدعي أنها تنحدر من مهاجرين يعنيين من حمير الزراعية.

أما قبائل زناتة، فكانت بلادها أحراً شبيهة صحراوية تتخللها الواحات التي تحط فيها القوافل رحالها. وأشهر هذه الواحات تلمسان وتاهرت. ومنايع المياه فيها ملك القبيلة كلها.

ولقد كانت النشاطات الاقتصادية للقبائل المستقرة تجد تكاملاً في دور القبائل الرحل. فالرعاة يأتون بالصوف واللحم، ويقدمون المحاررين المرتزقة الذين كثيراً ما يدافعون عن المدن والمراكز الحضرية لحساب اهاليها المستقرين. وبالمقابل، فهو لا يعطونهم فقط القمح والشعير والمنتجات المصنوعة، بل يوفر لهم أيضاً التربية الدينية والثقافة اللازمة لمشايخ البطون المتجولة. (٣) وتتخلل العلاقات الاقتصادية الهادئة بين الطرفين الخلافات المسلحة التي يحاول فيها كل منهما أن يفرض إرادته بالعنف على الطرف الآخر.

فبين صنهاجة وزناتة حروب طويلة تدافع فيها القبائل الأولى عن ممتلكاتها في واحة هجمات الجياع من القبائل الثانية.

وقد ذكر ابن خلدون في كتابه «تاريخ البربر» عدداً من القبائل اليهودية في المغرب، منها مزلا الجرارة والنفوسة في أفريقيا (تونس)، والقندلاوة والبهلولة النخ. وعند الفتح العربي، تزعمت امرأة يهودية المقاومة البربرية، وهي المشهورة «بالكينة»، وكانت تنقي إلى الجرارة. غير أن هذه القبائل اليهودية لم تتميز بدور اقتصادي مختلف عن القبائل الأخرى. ولذلك لم يخصصها الرواة بذكر خاص سوى القليل. وجدير بالملاحظة على العموم أن الصراع المسلح بين السكان المستقرين في الحضر وبين البدو الرحل ظاهرة بارزة ومتكررة في المغرب عنها في مصر، لتداخل المناطق الصحراوية في الجبال بالمساحات المزروعة في الوديان المغربية. في حين أن وادي النيل يفصل بصورة قاطعة بين المنطقتين. وقد ترتب أيضاً على هذا الاختلاف الطبيعي أن الطرق التجارية والمواصلات العسكرية والإدارية في مصر تستطيع على الأغلب أن تجري بعيدة عن منال البدو، الأمر الذي يصعب تحقيقه في المغرب. ولذلك نرى البدو البربر لا يقومون فقط بالتجارة هم أنفسهم، بل يستطيعون أن يفرضوا أنواتهم ورسومهم على التجارة العابرة (١).

ولمدة طويلة جداً، كانت للقبائل البدوية اليد العليا في الحكم السياسي. ومعروف أن الجنود البربر

اشتركوا في نهب روما عام ٤٥٥م. ويصف ابن خلدون البدو البربر باعتبارهم أصحاب السلطة والمسيطرين على الفقراء الذين يزرعون الأرض. ولذلك لا يجد سكان الحضر والقبائل المزارعة الكبيرة من وسيلة للدفاع إلا بالاستناد إلى سلطة مركزية قوية. وكان هذا عاملاً مهماً في حياة تونس السياسية بالذات، لأن الزراعة والنشاط الحضري يخصصان أكثر من نصف سكانها منذ قرطاجنة والرومان. وفي الفترة السابقة لظهور الفاطميين، نرى الزعيم الصنهاجي «مناد» يساند أمير الأغالة لأنه يلتقي بدوره المساعدة منه في وجه البدو (٥).

ب- العنصر الثاني لنمط الآسيوي: المشتركات الفلاحية والبدوية

احتفظت هذه المشتركات بحيويتها إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي. فالكتاب المحدثون سجلون أن البربر كانوا يعيشون جماعات وفي مستوى منخفض (٦) ويقول ابن خلدون أنهم يفتقدون توفير وسائل المعاش لأنفسهم بالقدر الذي يحفظ الحياة دون مزيد عليه... وفي «كتاب البلدان»، يقص لنا ابن الفقيه الهمزاني أسطورة الأسكندر في المغرب حيث التقى بقبيلة نسوية من اليهود يسميهم «البرجمانيين»، فقالوا له: «أنا أناس ساكنين ليس لنا أموال، ولا للملوك في أرضنا أرب... وما لنا أحد أغنى من الآخر» (٧)...

وكانت الوحدة الاجتماعية الصغرى لدى البربر هي «الموقدة»، وهي تجمع العشيرة أو الأسرة «المعتدة»، ويرتبط أفرادها بعلاقة الدم الحقيقية أو الصورية. وتسمى هذه العشيرة «الآخس» أو «الحروبة». ويجتمع عدد من المواقد في قرية فلاحية أو «دوار» بدوي. وتشكل مجموعة من القرى أو الدور وحدة سياسية أو دويلة اتحادية صغيرة. أما القبيلة الأم، فهي رباط بين عدد من هذه الأقسام، ولكنه رباط غير وثيق ومؤقت، وكثيراً ما ينفك في الظروف الخطيرة وخاصة في الحرب التي تقع بصورة متكررة.

والحق أن كل دوار أو قرية كانت عبارة عن جمهورية مستقلة. بتقيد أعضاؤها بقيود الأخلاقيات الجماعية والنظام. فهم ملزمون بسخرة مشتركة (نسمى «نوبري») لسد احتياجات القرية العامة مثل بناء أحد المنازل وإقامة الأجران والصوامع العامة التي نحفظ فيها المحاصيل المشتركة، والتي تستعمل أيضاً كفلاح في صالة التعرض للهجوم الخارجي^(٨).

وقد ظهرت الملكية الفردية الخاصة للأرض الزراعية منذ القرن الثالث ق.م. على الأغلب، وخاصة في تونس. ولكن القبائل الرحل وشبه الرحل أبقت على الملكية المشتركة. وفي عام ١٩٥٧ كان ما يزال في تونس ثلاثة ملايين هكتار (ما يقرب من ٧ مليون فدان) من الأراضي الجماعية^(٩). وفي المناطق الغربية (المغرب الحالي) يوجد تمييز بين الأراضي الزراعية («بلاد الحرت») وأراضي الرعي («بلاد المراع»). فحشائش هذه الأخيرة مشتركة للجميع حتى الآن^(١٠). أما المغرب الأوسط (الجزائر الآن)، فقد بقيت فيها آثار الملكية العقارية القبلية والعائلية قوية إلى أواخر القرن التاسع عشر^(١١). فأفراد العشيرة كانوا يستفيدون من المراعي والغابات بصورة مشتركة. أما الأرض الزراعية، فالأجرة هي التي تنتفع بها، ولأفراد العشيرة - بل القرية كلها في بعض الأحيان - حق في الأرض في حالة وفاة شيخ الأسرة.

وفي «المقدمة»، نرى ابن خلدون يعتبر «البادية أصل العمران»... و«أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة»^(١٢). ويبدو أن الشكل البدوي للمجتمع هو الذي فرض نموذجاً في المغرب، رغم وجود الملكية الخاصة. إلا أن هذه كانت موجودة في داخل إطار الحياة المشتركة لا خارجها. ويتميز هذا الشكل بالانفصال بين الرعي والزراعة كشطين مستقلين، وبقايا شديدة للامومية Matriarcat لدى بعض القبائل (الطوارق)، مع تمتع المرأة بحرية نسبية، وقلة انتشار تعدد الزوجات. كما يتميز أيضاً المشترك البدوي بالانغلاق والتمسك باستقلال كيانه.

وكان يحكم القرية أو الدوار مجلس من المشايخ هم أحياناً نفس أرباب العشائر. ويسمى هذا المجلس بالجماعة. ويتخذ قراراته بالاجماع طبقاً «للعادة» وهو التقليد العام لمجموع القبائل، أو طبقاً «للعرف» أي التقليد المحلي وتتلحق العادة بحقوق الأفسراد وأسابيل نقل الملكية.

وكانت مجالس البربر هذه أشبه بالجمهوريات المحلية الديمقراطية في المناطق الوسطى والغربية للمغرب. فأعضاء الجماعة منتخبون من مجموع سكان المشترك. أما في مناطق أخرى، فالمشايخ فرسان نبلاء، ولا يخرج المجلس عن طبقتهم. وفي أغلب الأحوال، فإن العلاقة القبلية بين القرى أو بين البطون أشبه بالانحداد الفدرالي الهش الذي يتفكك بسرعة.

ج - العنصر الثالث للنمط الآسيوي:
الفترات المتكررة - طالت أو قصرت - التي سادت فيها دولة مركزية ذات مهام اقتصادية في المغرب

وفي أغلب الأحيان، كانت عاصمة هذه الدولة المركزية في إفريقيا (تونس) منذ أيام قرطاجنة التي أسسها التجار الفينيقيون. ففي هذه المنطقة، تلعب الأعمال الانشائية لتخزين المياه دوراً هاماً في المحافظة على الزراعة وحياة السكان. وإذا كانت تونس لا تعرف الانهار الكبيرة التي تحتاج إلى السدود - مثل النيل - غير أنه لا بد فيها من إقامة الآبار والخزانات للمياه الجوفية وما ترد به الأمطار. وقد بدأ مثل هذه الأعمال حكماً قرطاجنة، ثم جاء الرومان فصانوها وظلوا يشنون غيرهم في المنطقة الشمالية للجزائر، وحفروا الأسار الأرنوازية في الواحات^(١٣). وبهذا استطاع الرومان أن يطوروا الزراعة المغربية وأن يستصلحوا مساحات بوراً واسعة، واكثروا فيها من زراعة الزيتون. وبدوا أن المشتركات الفلاحية، وشركات المقاولين، وبعض الملاك الكبار ساهموا في إقامة منشآت الري^(١٤).

غير أن تاريخ المغرب باسكمله - وليس تونس فقط - مليء بشكوكين الدول المركزية التي تبدأ من إحدى المناطق ثم ينتشر سلطانها على البلاد، وكان الطريق مفتوح أمام أي دولة تقوم فتتحد الأقاليم. ولكن هذا الانحداد لا بدوم إلا فترة قصيرة فتنهار. وتقوم وحيدة أخرى ذات مركز آخر وهكذا. وفي تقديرنا أن تفسير هذه الظاهرة لا يكمن فقط في احتياج تونس إلى انشاءات الري وتخزين المياه، وإنما نرى الأسباب عائدة إلى الضرورات الدفاعية الجماعية التي تلم شمل حلقات مترابطة من القبائل. ففي أغلب الأحوال نرى تونس مركزاً للدولة الموحدة التي عليها أن تقوم بالدفاع عن معيشة الزراعيين المستقرين فيها وتجار السواحل (قرطاج - القيروان - المهديّة - تونس الخ) ضد الرحل من الرعاة وشبه الرحل من المزارعين المتنقلين (الدولة الاغلبية). وفي أحوال أخرى نرى شبه الرحل المنتجين (مثل قبائل الصنهاجة) هي التي تشكل مركز الدولة ضد الرحل (زنانة). وفي أحوال ثالثة نجد - على العكس - المصالح التجارية للدول تغلب فتصبح أساس الدولة المركزية (الدولة المرابطية).

وبالتالي، فالمهام الاقتصادية للدولة المركزية في المغرب قد تكون أقل بروزاً منها في مصر. ولكن المهام الاجتماعية (بمعنى المحافظة على نمط معين من الانتاج والمعيشة في وجه الانماط المغايرة الأخرى) تبقى ملقاة على كتف الدولة المركزي عندما توجد. ولكن الدولة في هذه الحالة سرعان ما تتولى أيضاً بقية الوظائف المميزة للنظام الشرقي، بمعنى أن تثبت المهام الاقتصادية والدنية ألغ من ارضية الأساس الاجتماعي لضرورة الدولة المركزية، وبهذا نستكمل كيانها وكأنها فوق الطبقات. وبكفي هنا أن نذكر بعض الأمثلة.

فمن القرن الخامس حتى القرن السابع الميلاديين كان يحكم المغرب المحتلون «الفندل» الأربوسيون^(١٥) الذين اتخذوا قرطاج عاصمة لهم. وكان بطرك كنيستهم يخضع للملك الفندالي الذي يعين الاساقفة

ويأذن باجتماع المجامع المقدسة ، وبمنح للكنيسة المغربية الكنائس والاموال التي صادرها من السلطة البيزنطية.

وكذلك نجد ان الدولة المغربية هي التي تملك الارض كلها ، وتمنح الافراد حق استصلاح الاراضي التي تقع في حدود المشتريات الفلاحية. ونرى عصر بن عبد الله المرادي في العهد الموحيدي بأمر بمسح اراضي المغرب كلها بقصد توظيف الخراج عليها (١٦). وظلت اراضي « المخزن » الواسعة - أي الاراضي الحكومية - ظاهرة موجودة الى ما بعد الاحتلال الفرنسي.

وقد ترتب على هذا الوضع ان تحتكر الدولة المغربية أنواعاً من التجارة والصناعة. ونعلم مثلاً أن سلطان مراكش - مولاي عبدالرحمن - قرر احتكار تجارة الجلود في ١٨٥٠ الخ.

٢ - خصوصية النظام المغربي

سبق الاشارة الى بعض العناصر التي تشكل خصوصية النظام المغربي كشكل من اشكال النظم « الشرقية » المعتمدة على النمط الاسبوي للانتاج. ونقدم هنا بعض التفصيل.

أ - ضعف المركزية وسرعة تفككها

إن ضعف المركزية وسرعة تفككها في المغرب بشكلان أول عنصر الخصوصية المغربية بالمقارنة مع الوحدة المصرية الثابتة كالطود (الدول النوبيدية ، والفندالية ، والاغلبية ، والفاطمية ، والموحديدية والمرابطة الخ) (١٧).

ب - استمرار ظهور الجمهوريات المشاعية المستقلة

فهذه الجمهوريات المشاعية لا تظهر فقط بين

الفترات التي تسطر فيها الدولة المركزية. بل واثناها ايضاً. فالقوة الطاردة هنا ، والدافعة الى التفكك هي الناتجة من تنازعات القبائل على الاراضي الخصبة والمراعي والطرق التجارية ، وهي التي تتغلب المرة بعد المرة على روابط الدم بين البطون والعشائر ، وعلى المصالح الموحدة التي تساعد قيام الدولة المركزية. أي أن المركزية المغربية - في الفترة التي نحن بصدددها - لم تكن نتيجة الانصهار الجماعي في التعاق بالمشترك الاعلى مثل النموذج المصري. بل كانت تلك المركزية هيكلاً علوياً مركباً فوق جزئيات متباينة من المجموعات المتمايزة. (١٨)

ج - والعنصر الثالث هو التباين بين اجزاء المغرب

فهناك عدم التجانس والتساوي بين اجزاء المغرب المختلفة ، ووجود نظم أكثر تقدماً في مناطق منه دون اخرى ، وتركزها بشكل خاص في تونس (افريقيا). فمنذ ان اسس الفينيقيون قرطاجنة في القرن السابع ق.م. ، انتشرت في المنطقة التونسية زراعة العنب والزيتون ، وصناعة النبيذ والزيت ، ونم استخراج النحاس من المناجم الافريقية. وكانت النبالة القرطاجنية هي التي وضعت حدوداً للتوسع الاغريقي التجاري والحربي في المنطقة ، وتحالفت مع الفرس لهذا الغرض. وكانت التجارة القرطاجنية معتمدة على المقايضة فترة طويلة ، ولكنها عرفت النقود منذ القرن الرابع ق.م. وفي القرن الثالث استطاع القرطاجنيون استغلال مناجم الفضة الاسبانية ، فزادوا ثراء ، وتركزت الاموال في ايدي البعض ، وتأسست الصناعات التحويلية المختلفة في المنطقة التونسية (الفخار والنسيج والصباغة وسبك المعادن والصباغة والعمود وحفظ اللحوم والاسماك). وكانت هذه الصناعات معتمدة جزئياً على الحرفيين والعمال الاحرار المنظمين في طوائف مهنية ، وكذلك على عدد من العبيد الحرفيين والزراعيين.

واسنولت الطبقة الحاكمة القرطاجنية على الشواطئ الليبية وعلى غالبية الاراضي التونسية حيث طردت الرعاة البربر منها ، وأقامت منشآت زراعية صغيرة ولكنها مكثفة في مبداني المال واليد العاملة ، وتنتج الزيتون والعنب واللوز والعسل والشمع ، وتربي الخراف والحيل والابفار. واخضعت قرطاجنة الفلاحين الليبيين - الذين يزرعون القمح - فارضة عليهم الضرائب النوعية الثقيلة ، الأمر الذي أدى الى اندلاع العديد من الثورات الفلاحية في المنطقة. (١٩)

ومكنت هذه الانشطة قرطاجنة من ان تحتفظ بامراطورية تجارية هائلة. وامدت مراكزها التجارية في افريقيا الى خليج غينيا قروناً عديدة حتى بعد ان هزمها روما على شواطئ البحر الابيض.

وفي ظل الرومان زادت زراعة العنب والزيتون انتشاراً في تونس. ونم مسح الأراضي ونهـدب الحيازات الزراعية. وطرد الفلاحون من الأرض الخصبة. فأصبحوا يتجولون في الصحاري أو يندولوا الى موال للمقاولين الرومان الذين أخذوا يستأجرون الأرض من ادارة الوالي. وأبقى الفندال والبيزنطيون على هذا النظام الذي يقرب من « قناة الأرض » المعروفة في مصر بعد الفتح العربي. وكانت المنطقة المغربية كلها مسرحاً للمقاومة البربرية المستمرة ضد مختلف الحكام الاجانب الذين كانوا ينشئون مراكزهم التجارية والمسكرية والادارية بالقرب من الشواطئ والطرق البحرية التي يسيطرون عليها. وعلى العكس ، فقد اتجهت الدول التي أسسها البربر بعد ذلك (المرابطية التي تلتها) الى اقامة عواصمها في داخلية البلاد.

وهكذا وجد الغزو العربي المغرب عبارة عن منطقتين اقتصاديتين مختلفتين المستوى: فتونس من جهة حيث الزراعة السلبية والصناعة الحرفية والتجارة ذات الاساليب المالية المتطورة ، وحيث التقسيم الطبقي متقدم. مما أدى الى وجود العبيد والموالي والعمال والمنتجين الصغار الى جانب الكبار في شتى الانشطة. ثم سائر المغرب حيث اليد العليا للمشاعية

البدوية وشبه البدوية، وحيث التقسيم الطبقي ما زال في أولى خطواته في معظم المناطق. وفي تقديرنا أن هذه الأوضاع تقدم تفسيراً لالتاريخ المغرب بعد ذلك فحسب بل وخاصة للفتوح الفاطمية لمصر والسماط التي أتت بها في حكمه.

ثانياً - الحكم العربي يطابق الظروف المغربية الخاصة

دفع الحكم العربي المغرب في نفس اتجاه التطور الذي وصفناه فلأ:

١- توزيع الأرض على العرب في تونس

لقد تم الفتح العربي للمغرب على مراحل كان فيها الكر والفر. أسس العرب قيروان في تونس عام ٦٧٠م. ثم كانت ثورة الرعيم البربري قسيلة الذي استطاع أن يوحد القبائل الجبلية والفلاحية واستولى على قيروان، ولكنه هزم في نهاية الأمر.

وفي ولاية حسان بن نعمان (٦٩٢-٧٠٥م) مرض الخراج على أهل المغرب، واعتبرت أرض الناحية البيزنطية وكذلك من عليها من الموالى ملكاً للمسلمين. ولكن العرب اعتبروا أراضي البربر مفتوحة صلحاً، فتركوها في أيدي أصحابها يؤدون عنها المال للدولة. وأما البربر أنفسهم فاعتبرهم العرب أحراراً، وأشركهم حسان أيضاً في الجيش. وهو أمر يختلف عما حدث في مصر. (٢٠)

وبذكر البلاذري (٢١) أن عقبة بن نافع قسم أراضي أفريقية (تونس) بين المسلمين، وهو الأمر الذي رفضه عمر بن العاص بالنسبة لمصر. وكذلك يشير ابن خلدون إلى أن العرب الفاتحين اقتسموا مناطق المغرب وأماراتها فيما بينهم، وأن أحد القادة (صالح بن منصور) استولى على إقليم الريف، فحصل من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على الأذن

باحتفاظه بهذه الأراضي باعتباره انقطاعاً له.

ثم كان من يزيد بن عبد الملك أن فرض الجزية على البربر جميعاً، مسلمين وغير مسلمين، واعتبر المغرب كله دار حرب حتى بعد أن اعتنق أهله الإسلام. وقرر يزيد بن أبي مسلم عام ٧٢٠م فرض الجزية على أهل أفريقية الذين اعتنقوا الإسلام. وأما عبيد الله بن الحجاب، فقد اعتبر البربر أنفسهم فيئاً للمسلمين وعاملهم كأرقاء. وفي العصر العباسي، اشتدت ظاهرة تكوير الصواني (أي العزب الكبرى) المملوكة للولاة العرب والعمال على البلاد وكبار القواد فضلاً عن أبناء البيت العباسي. وانتشرت البساتين الواسعة التي يروونها من مياه الآبار. (٢٢)

وكانت النتيجة إقرار نظام مزدوج في المغرب بالنسبة للملكية الأرض، أي تشجيع الملكية الفردية حثاً إلى حب ملكية الأرض، بمعنى استمرار فرض نمط إنتاجي مخالف لمشاعية القبائل الرحل وشبه الرحل. وهو أمر كان يشير حفيظتها ويدعوها للثورة المزمعة. (٢٣)

٢- تدهور الأحوال في المغرب

يبدو أن أوضاع المغرب - وخاصة تونس - كانت مزدهرة عند الفتح العربي. ويصف ابن أبي دبنسار مدينة درعة عند وصول عقبة إليها بأنها عظيمة بأسواقها وعدد سكانها وارتفاع عمارتها. (٢٤) ولكن الولاة الذين فوضهم الأمويون والعباسيون من بعدهم لم يكن لهم هم سوى اعتصار المغاربة والعيش منطلقين. ويعمم ابن خلدون هذه الوقائع في نظرية سطرها في فصل أسماها: «في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب» فيقول:

«وأيضاً، فلأنهم يتلقون على أهل الأعمال من الصانع والحرف أعمالهم، ولا يرون لها قيمة ولا فسطاً من الأجر والثمن والأعمال كما سبذكر هي أصل المكاسب وحقيقتها، وإذا فسدت الأعمال

وصارت مجاناً ضعفت الأموال في المكاسب وانقبضت الأيدي عن العمل. وابتذر الساكن وفسد العمران». (٢٥)

وكانت غالبية القبائل البربرية من الفقر بحيث يستحيل على أفرادها أن يجدوا المال اللازم لتسديد الجزية المفروضة عليهم. فابتدع الولاة أمراً لم نسمع عن مثله في الفتح العربي للبلدان الأخرى، وهي أن يدد البربر الجزية عبيداً من أطفالهم ونسائهم للمغرب. (٢٦) وسبق الإشارة إلى أن البربر وأموالهم فيئاً للمسلمين في العصرين الأموي والعباسي وزخرت أسواق الرقيق في الشرق بالأماء البربريات والرقيق المغربي، وكانت التجارة بهم مربحة مزدهرة استمرت حتى القرن السادس عشر. (٢٧)

٣ - انتشار الحركة الخارجية

كان طبعاً أن يولد هنا الصدام بين الفاتحين المحدد وبين البربر المغاربة حركات مقاومة. وكانت طليعتها تثب هنا وهناك في مختلف القبائل البدوية استكمالاً لتراث الماضي عند الرومان والبيزنطيين. وفي الإسلام، وجدت جميع الحركات الدينية المعارضة سلطة الخلافة القائمة تمثلين لها في الشعب المغربي البربري. فكان أن انتشرت الحركات الخارجية في القرن الثامن والشيعة في العاشر، والاشعرية الموحدية في الثاني عشر والشريفية المرابطية في السادس عشر الخ. وسبق الإشارة إلى سيادة الهرطقة الأريوسية أيام الفندال.

أما في الفترة التي نحن بصدها، فنرى المعارضة للحكم العربي في القيروان بأخذ شكل الخارجية، وهي التي تعتبر جميع الخلفاء من بعد عثمان ظالمين كاذبين تحمل عليهم الثورة ومصادرة أموالهم، بل هو واجب مقدس. وفي نظير الخوارج المغاربة فالطهارة المعنوية أهم شأناً دينياً من الطهارة المادية. وفي أغلب الأحيان لا يعتبر المذنب هنا يستحق جهنم فقط بل هو عدو الجماعة المؤمنة. وذهب البعض منهم إلى إحلال دمه.

ومن أهم الحركات المغربية الخارجية الفترة الاباضية التي تبعت عبدالله بن اباض، وتكون جماعة منفصلة يعترفون بالقرآن والحديث كمصدر للمعرفة الدينية، ولكنهم يتخذون الرأي في الحكم على الامور دون الاجماع والقياس. وهناك نحلة تذهب الى حد بعيد، وهي الصفريفة التي تبعت أبا مخنف، وتقبل نظرية القمود أي المهادنة المؤقتة ازاء المسلمين الآخرين، والتقية أي اخفاء الفرد لحقيقة ايمانه. اما الفرقة الازرقية، فهي اشدها جميعاً، وتقول بمذهب الاستعراض أي قتل الاعداء وأسرهم. (٢٨)

وفي عام ٧٤٠ تقريباً، قاد صالح بن طريف قبيلة البرغواطية في المغرب الأقصى في حركة صفريفة. ثم أعلن نبوته وأنكر القرآن وادعى أنه تلقى من الله قرآناً جديداً باللغة البربرية وبه ٨٠ سورة. وفرضت الحركة على أفرادها الطرد من الجماعة حداً للكذب والقتل حداً للاغتصاب، ومنعت معاشره الجوارى والزواج من غيرها من المسلمين. وحرمت أكل لحم رؤوس الحيوانات والبيض والديوك. واستمرت هذه النحلة قائمة مدة ثلاثة قرون تقريباً.

وفي نفس الفترة تقريباً (منتصف القرن الثامن)، ثارت قبيلة المظفارة تحت زعامة السقا الصفريفة «ميرة»، فقتلوا العامل على طنجة، واستولوا على المدينة. ثم اتسع نطاق دولتهم حتى شملت بلاد المغرب من برقة شرقاً حتى المحيط الاطلسي غرباً. وهزمهم حضنة عام ٧٤٢. ولكن بقاياهم أسسوا دويلات صفريفة صغيرة في المناطق الداخلية، ومنها دولة تلمسان ملوبة التي قامت تحت زعامة أبي قررة من ٧٤٢ الى ٧٨٠، ومنها دولة سجلماة التي دامت فترة طويلة، وسعود البها فيما بعد. ولكن تجدر الإشارة الى الدولة التي أسسها زعيم الفمارة من قبيلة المجاعة عام ٩٢٥ تقريباً بالقرب من تطوين (نطوان) في المغرب الأقصى. وكان هذا الزعيم المسمى بـ «حاه ميم» قد ألف قرآناً باللغة البربرية احتوى على قسم بالايمان بحاه ميم وأبيه أبي خلف وشقيقته تانسيفت. والقى حاه ميم الوضوء، واكتفى بصلاتين بدلاً من خمسة، واختصر صيام رمضان على أيامه الاخيرة.

يبد أنه من أهم الدول الخارجية الدولة المدراوية في سجلماة التي أسسها بربر مكناسة من بطون زناتة في حوالي عام ٧٥٧م (١٤٠هـ)، ودامت قرنين، الى ٩٥٨. حين استولى عليها جوهر الصقلي. وكان يتزعم هؤلاء الصفريين عيسى بن مزيد أو يزيد الملقب بالاسود. وكانت سجلماة مركزاً تجارياً هاماً للمنتجات الغذائية الواردة من الوديان والشواطىء. وكذلك للربيق السوداني المستجلب عبر الصحراء والذي استخدم كنفود مدة طويلة.

والدولة الخارجية الهامة الثانية هي دولة تاهرت (أو تيهرت) الاباضية التي أسسها عبدالرحمن بن رستم الذي استولى على القيروان، وطرد منها السنين ثم هزم جيشه في طرابلس، فانسحب الى هضاب تيارت العليا عام ٧٦٠. وكانت تاهرت إحدى المحطات التجارية العظمى في المنطقة، فتزرع حولها الحبوب والساتين والازهار بفضل وسائل الري الصناعي. وتمتلى أسواقها بالبيضات الواردة عبر صحراء افريقية ومن مراسي الشواطىء ومن السودان (٢٩). ولكن ثروتها الاساسية تأتي من التبادل بين الرعاة البدو والفلاحين شبه المستقرين الذين ينتجون الحبوب.

واشتهر حكم هذه الدولة الخارجية التسوية بالكفاف وسمو الاخلاق وطهارة البدن. وكان أفرادهم منتجين ولا يحملون القاباً بل يسمون أئمة. وليس الامام منهم سلطاناً وان كانت قراراته تفسر النشاط العام والخاص على السواء. وهو يحاط بالفقهاء ذوي النفوذ المعنوي الكبير، وان لم يشكوا هيئة ذات سلطة ادارية. واشتهر أحد الائمة الرسميين - المدعو «أفلق» - بأنه أمر بصنع أواني واسعة يوزع الطعام فيها على الشعب (٣٠). ورغم التدين الشديد لأهل الدولة الرسمية، إلا أنهم عرفوا بالسماحة الكبيرة مع الاديان والنحل الأخرى. وقد جمع غير الاباضيين من التجار في تاهرت ثروات كبيرة (٣١). وسقطت الدولة الرسمية أيضاً تحت ضربات الجيش الفاطمي عام ٩٠٩.

وأخيراً، فهناك الثورة الخارجية التي قادها أبو يزيد الزناتاني المعروف بأبي حمارة، في ٩٤٢. فأقام

مجلساً من المشايخ يحكم دولته، وتلقب هو بشيخ المؤمنين. وقد وصلت جموعه المسلحة حتى القيروان والمهديفة.

هذه هي أهم الحركات الخارجية التي كان البدو والبربر من الرعاة جنودها، وصغار الحرفيين والصناع (السقاء، الحمار الخ) قادتها، والتي ارتبطت الى حد كبير بحركة التجارة العابرة بالمغرب بين شواطىء البحر الابيض وداخلية القارة الافريقية. وقد أرسل الخلفاء الفاطميون ضدهم قبيلتي بني هلال وبني سليم من عرب مصر لسحقها في منتصف القرن الحادي عشر.



ثالثاً - صعود القوة المغربية:

سبقت الدولة الاغلبية (٨٠٠-٩٠٩م) قيام الخلافة الفاطمية في المغرب. وفي الظروف التي احاطت بحكم بني الأغلب في القيروان، والتناقضات التي اعملت بداخل المجتمع المغربي حينذاك، نجد تفسيراً للتطورات التي جرت عندما تولى الفاطميون في المغرب ثم مصر.

١- النهضة الاقتصادية العامة:

عم الازدهار الاقتصادي تونس في العهد الأغلبي. فتمت زراعة الحبوب وانتشر الزيتون في منطقة سوسة بالقرب من تونس، ثم الكروم والفسدق. واشتهر ريف القيروان بالخضر والفاكهة مثل التين. وكانت بساتينها تشكل مسطحات مدرجة للاستفادة الكاملة بالمياه الموجودة. وزرع القطن في الزاب، والكرم في فرطاج وقصب السكر في قستيلة وقابس التي انتشرت فيها أيضاً زراعة الموز. (٣٢)

وكذلك شهدت افريقية الاغلبية نهضة صناعية. ففي مدينة بجاية التونسية استغلت مناجم الحديد والائتمون (الائتمون) والفضة والرمصاص. وكانت هذه المعادن تستعمل في قاعدة سوسة البحرية بشكل خاص. وكذلك قامت في القيروان صناعة الزجاج

والخزف المطعم بالميناء، واشتهرت تونس بالتسج (الطراز) (٢٢) واستخراج الزيت وصناعة الألبسة والمنتجات الجلدية.

ونشطت التجارة الداخلية، وخاصة في أسواق منستير وقسنطينة وطرابلس وتونس والقيروان. كما ازدهرت التجارة البحرية في مواني قابس وسفاس وتونس، وخاصة بعد أن استولى الأغالية على جزيرة صقلية، الأمر الذي مكّنهم من السيطرة على الجزء الغربي من البحر الأبيض.

ولكن الذين استفادوا من هذه النهضة الاقتصادية كانوا أساساً العرب من كبار الملاك وقادة الفرق العسكرية. ثم المزارعين الأغنياء. وهم «الأفريق» أي المنحدرون من الرومان واللاتين. أما أفراد الطبقات الدنيا من البربر أو من أصل رومي، فلم تتقدم حالتهم تقدماً يذكر. وكان الحرفيون منهم على الخصوص يصطدمون بالاجراءات الاقتصادية الصادرة من الحكومة المركزية لصالح الحكام، فكثيراً ما تزعمت طوائفهم المنظمة الصفوف حركات المقاومة الثورية ومثال ذلك اضراب الأسواق في عام ٨٨٨ احتجاجاً على التعديلات التي أجراها إبراهيم بن الأغلب في العملة (٢٣).

وأما الطبقة التي في القاع، فهي المبيد. ومنهم الصقالبة المنجلبون من أوروبا الشرقية، وبعض المغاربة من الذميين السابقين، والبربر والزنوج الأثني من أواسط أفريقيا والسودان.

وقد تأثرت الطبقات الشعبية المغربية بالمجاعات التي حلت في ذلك العهد، وخاصة القحط عام ٨٧٣-٨٧٤ الذي اقترن بالطاعون والأوبئة، ومجاعة عام ٨٧٩-٨٨٠ التي اصطحبها ارتفاع شديد في اسعار الحاجيات.

٢- نشاط تجاري واسع

كانت الدولة الأغلبية مقدمة للفاطميين في نشاطها التجاري الخارجي بصفة خاصة. فكان للقيروان مركز ممتاز في تصدير القمح المغربي وخاصة إلى الاسكندرية

والرقيق السوداني إلى بلاد المشرق. وكانت تونس تستورد زيت الزيتون من مناطق طرابلس وتعد تصديره إلى صقلية وإيطاليا.

وفي عهد الأغالية، كانت القوافل التجارية تخرق الصحراء المغربية إلى بلاد السنغال والنيجر والسودان حيث يتوافر الذهب والرقيق. وسبقت الإشارة إلى مدينة - سجلماسة - عاصمة الدولة الرستمية الخارجية - باعتبارها مدخلاً من مداخل الطرق التي تسيطر عليها القوافل.

وكانت الرسوم المفروضة على هذه التجارة تملأ خزانة الاغالية. فمكنت هذه الثروة ابراهيم الثاني من أن يضرب الدراهم الصحيحة وزناً.

وتمكنت الدولة الاغلبية من أن تلعب دوراً رئيساً في تجارة البحر الأبيض جنباً إلى جنب المدن الايطالية. فانتزعت صقلية من أيدي البيزنطيين عام ٨٢٧ ثم استولت على جزيرة مالطة (٨٦٨) وبعض الثغور الايطالية السامة (سيراكوزة في ٨٧٨، باليرمو وريجيو عام ٩٠٠). وحاول آخر الأغالية استكمال سيطرتهم على البحر الأبيض بالامتلاء على مصر، فجهز جيشاً وقاده يريد قتال ابن طولون، ولكنه لم يستطع تنفيذ مخططة (٢٤). بيد أن غارته هذه انبأت بالتوسع المغربي في العهد التالي أي الدولة الفاطمية. كما أن النشاط التجاري الخارجي للمغرب في ظل الاغالية ترك اثرأ شديداً على اقتصاده في تاريخه اللاحق، وأعطى وزناً سياسياً كبيراً لفئات التجار والصناع المغربية. (٢٥)

٣- النظام الشرقي الاغلب

كانت الدولة الاغلبية مركزية، تشابه نظمها هيكل الدولة العباسية الشرقي. فأحاطت البيروقراطية بالأمير، واشتملت على الوزير والحاجب وصاحب البريد والسكرتارين والكتابة الاداريين وجيش الموظفين من الموالي والعرب.

وكون ابراهيم الاول جيشاً دائماً يعيش جنوده على الراتب دون الاقطاع، وقد وفدوا الى تونس من

خرسان او كانوا من الرقيق والمرتقة الزوج. وقامت الصراعات بين هذا الجيش والقوة العربية القديمة من المضربين في المدة بين ٨٠٠ و ٨٣٠، تغلب فيها المرتقة في نهاية الامر، وخاصة بعد الاستيلاء على صقلية. وكذلك وقعت القبائل البربرية موقف العداء من الجيش الاغلب. وليس غريباً بعد ذلك ان تناصر كتامة الفاطميين، فتشكل القوة الاساسية في اقامة خلافتهم بالمغرب ثم مصر.

وقد كان للاغالية سياسة اقتصادية وخاصة في مجال الري الصناعي. فأقاموا العديد من خزانات المياه الكبرى («المواجل») والقنوات العليا الموصلة للماء، ونشروا استعمال السواقي.

وفرض بنو الأغلب الخراج على جميع الاراضي، سواء كان المنتفع بها ذمياً أم مسلماً. وجبوا العشور نقداً لا جنساً، وحملوا البضائع في حركتها واسواقها رسوماً غير شرعية، وهي امور اثار حفيظة مختلف الفئات من المغاربة، وخاصة البربر. ويبدو انهم فرضوا ايضاً نوعاً من الدخلة لتعبئة العمالة اللازمة لانشاءات الري. وضيقوا الخناق على التجار والحرفيين عن طريق نظام الحبة. ولذلك، فرغم الازدهار الاقتصادي الذي سبق الإشارة إليه، تكونت ضد الحكم الاغلب أرضية من السخط العام هبأت المناخ لقيام حكم الشيعة الاسماعيلية المعارضة «للمؤسسة الخليفة» القائمة.

وهنا ايضاً نجد ان بطون بني كتامة - من قبائل صنهاجة - استطاعت أن تتولى طليعة هذه الحركة المعارضة. فقد كانت كتامة تتمتع باستقلال نسبي ازاء الحكم الاغلب وولاية الثغور إذ، كانت نصسرف حصيلة العشور والزكاة المجموعة لديها صرفاً محلياً لمصلحة المعوزين منهم، دون تسديد هذه الحصيلة للدولة الاغلبية. (٢٦) وبهذا كانوا ركيزة جيدة تبدأ منها حركة الفواطم في عملية انتزاع السلطة من الاغالية.

وكذلك، فلكون كتامة من القبائل المزارعة والراعية الغنية وشبه المستقرة، فقد كانوا أيضاً قاعدة طبيعية لحرب الفواطم ضد الدول الخارجية في سجلماسة وتاهرت وغيرها.

رابعاً - انتصار الفاطميين في المغرب

استطاعت الحركة الفاطمية أن تخدم المصالح الخاصة لهؤلاء التجار - من المغاربة وغيرهم - الذين يتخذون الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض مركزاً لنشاطهم. واعتمدت الخلافة الفاطمية في تحقيقها لهذه الأهداف على قوة سياسية كبيرة مكونة من صغار المنتجين والتجار البربر الذين كانوا يصطدمون بعجز الأغلبية عن الانتقال إلى مستوى أوسع من السيطرة الإقليمية. كما أن الفاطميين استندوا على قبائل الصنهاجة - وكتامة أساساً - كقوة محاربة والنهم بسبب نظمهم الاقتصادية باعتبارهم من المزارعين والرعاة المنتجين (نصف الرحل) الذين يولفون بين النشاط العائلي والجماعية العشيرية. فكانت كتامة تنادي كبار أصحاب الأراضي والتجار والامراء في شمال تونس، ونعادي الحكم الأغلي الاستبدادي بجنوده المرتزقة الأجانب. ولكن كتامة كانت تعادي أيضاً التسويبين من البدو والبربر الفقراء الذين يشكلون قاعدة الحركة الخارجية.

وان هذا المزج السياسي بين تلك الفئات الاجتماعية المختلفة التي ساندت الحركة الفاطمية في مراحلها الأولى يفسر لنا لماذا استطاعت أن تنطلق من المغرب، ولماذا نجحت في الاستيلاء على مصر أولاً ثم على جزء كبير من الامبراطورية الإسلامية. كما أنه يلقي ضوءاً على الجذور الفكرية لمواقف الفـواطم عموماً.

١- الفاطميون يحاربون الأغلبة والخوارج

كانت قبائل صنهاجة - كما رأينا - تزعم أنها تنحدر من أصل حميري. ولعل هذا كان السبب في أن الامام الفاطمي كلف مندوبه أبا عبدالله بالذهاب أولاً إلى داعي اليمن ابن حوشب حتى يسهل له الاتصال بحجاج كتامة في مكة. ومهما كان الأمر، فمن الملفت للنظر أن تنخرط كتامة تحت لواء أبي عبدالله في سرعة عجيبة، وينضبط أفراد القبائل ومجموعاتها في تنظيماته العسكرية

والسياسية الدقيقة، وتتحد هذه القوة الضاربة بفضل روابط الأخوة والمساواة في الله (٢٨). وفي الوقت نفسه نجد أبا عبدالله يلتزم بسياسة مبدئية، فسواء يرفض الخراج المجبي من أهل طبة بعد الاستيلاء عليها (عام ٩٠٦) على أساس أن المسلمين ليس عليهم خراج في أموالهم، وورده إلى أصحابه (٢٩).

وبفضل قوة كتامة المحاربة، لم يستطع أبو عبدالله فقط أن يحرر عبيد الله المهدي من الأسر في سجلماسة، بل استولى على القيروان عام ٩٠٩، وأسقط بذلك الأسرة الأغلبية، فقامت مكانها الخلافة الفاطمية. وفي نفس الوقت استولى الجيش الاسماعيلي الفاطمي على تاهرت، العاصمة الخارجية الأخرى (٣٠). وبعد ذلك بستين أمر الخليفة عبدالله المهدي بقتل أبي عبدالله... وتذكرنا هذه الحادثة بقتل الخليفة العباسي المنصور لأبي مسلم الخرساني الذي قاد الحركة الثورية ضد الأمويين. وفي ٩٢٠ أسس الخليفة الجديد عاصمته «المهديّة» على شبه جزيرة في تونس. فكان ميناؤها نقطة انطلاق للأسطول الفاطمي إلى الشرق، كما كانت حصونها مانة في وجه الهجمات المحتملة من البربر.

هوامش :

(١٦) جمال موسى: «المغرب الإسلامي» - ط ١، فسطاطية، ١٩٦٩، ص ١٩٥.

E.F. GAUTIER: "Le Passé de l'Afrique du Nord" - Paris, Payot, 1942, p.p. 11/12.

S. GSELL: Op. cit., p. 17. (١٨)

R. CORNEVIN: "Histoire de l'Afrique" - T. I, Paris, Payot, 1967, p. 127. (١٩)

(٢٠) عبدالرحمن بن محمد الحيلالي «تاريخ الجزائر المسمى» - جردان، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، ١٩٦٥، الجزء الأول، ص ١٨٩/١٩٠.

(٢١) (البلاذري) (أحمد بن يحيى بن جابر) «كتاب فتوح البلدان» - القسم الأول، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧، ص ٢٦٨ : ٢٦٩.

(٢٢) د. محمود اسمايل: «سقا القيروان والثورة الاجتماعية في المغرب» - مجلة الكاتب، القاهرة، العدد ١٤٨، يوليو ١٩٧٣، ص ١١٠/١١٢.

(٢٣) أظهر مقعة ابن خلدون - الجزء الثاني: الباب الثالث: الفصل الثالث عشر المسمى: «في أنه إذا استحكمت طيعة الملك من الأفراد بالمجد وحصول الترف والده» - أنشئت الدولة على الهرم». مما يعني في نظره أن شئ الطبقة الحاكمة

L. GOLVIN: "Le Magrib Central à l'époque des Zirides". Paris, Arts et Metiers graphiques, 1957, p. 27.

(١٦) احسان حق: «تونس المشرقية» - بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٣، ص ١٠.

M. HADJ-SADOK, ed.: "Description du Maghreb" - Alger, Carbonel, 1949. (٧)

ENCYCLOPEDIA of ISLAM: Art. "Berbers". (٨)

C. DEBBASCHI: "Le republique tunisienne" - Paris, Pichon et D. Auzias, 1962, p. 174. (٩)

J. COULEAU: "Le paysannerie marocaine" Paris, C.N.R.S., 1968. (١٠)

(١١) اهتم ماركس بتأثير تطور الملكية الزراعية في الجزائر وأشكالها الانتقالية المختلفة.

(١٢) حروان الفصل الثالث والرابع من الباب الثاني: «في الصراخ البدوي والامم الوحشية».

C.A. JULIEN: "Histoire de l'Afrique du Nord" - Paris, Payot, 1931, p. 170. (١٣)

S. GSELL, et all.: "Histoire de l'Algerie" - Paris, Boivin, 1929, p. 35. (١٤)

(١٥) من الهرمقات المبيحة في ذلك الوقت.

(٢) في خطابه إلى انجلر بتاريخ ١٩٥٣/٦/٢، يشير ماركس إلى وجود علاقة عامة، منذ أن بدأ التاريخ وسط جميع القبائل القريبة، بين استقرار جزء من القبائل والحياة البدوية المستمرة للآخرى... وعندما نتحدث في هذه الدراسة عن التفاضل بين الصحراء والمغرب، لا نفي مفهوم جغرافيا اقليميا بحتا، وان كان هذا الأساس له تأثير كبير، وخاصة في البداية. وكذلك لا نقصد مفهوما اثنا صرفا. بل نطرح بصفة خاصة إلى ما هو موجود من تقسيم العمل الاجتماعي بين الصحراء والمغرب، وبالتالي أثر ذلك على التشكيل الطبقي والعلاقات الطبقة المترتبة على علاقات الإنتاج.

J. ABUN-NASR: "A History of the Maghrib." Cambridge, University Press, 1971, p.p. 9/10. (٣)

انظر مثلاً: Leo AFRICANUS: "The History and Description of Africa" London-Haykloyt Society, 1896, Vol. 1, p. 154. (١)

تبادل الأطر المادية والروحية لبعض المجتمعات :

نعم : هل ينكر منكر : وجود الآلاف من ابتائنا في جامعات العالم . يعيون العلم بما : وسيمودون من هناك محاطين بهالة الكفاءات ! دون الكثير الكثير من بصماتها !! لعلمهم في ذلك معدودون ! بعدما تحت الكفاءة في ساحتهم الوطنية : ولا أقلن ذلك إلا فحة من رمن تحت بلاعيراف بكفاءة العناصر التي أعدت هنا . وبذلك يعاد الاعتبار لثقافتنا ومؤسساتها الثقافية . ونحن لذلك لننتظرون !

مع كل ذلك . نبني السمات الروحية والمبهم الذاتية . والعلاقات والروابط الاجتماعية سمات خاصة تمتاز بها الأمة عن غيرها : لأنها ظاهرات ملتصقة بالإنسان : أكثر منها مزاجا عابرا يمكنه التخلص منه متى شاء !

الخلاصة :

ان مهمة ثقافية شاقة ، تقع على عاتق المثقفين ممن يعنيههم الأمر لابد أن نأخذ طريقها الى اذهان المواطنين ، عبر المدرسة والجامعة ، عبر العمل والحقل ، عبر الإذاعة والتلفزيون ، في الجرائد والمجلات ، في المسرح والسينما . ولا تعفي نفسها من هذه المهمة ، لا المنظمات الشعبية ، ولا المؤسسات المهنية ، ولا التجمعات الفنية والأدبية ، نريد معارض وعروضاً وبحوثاً ، وفصائد وافاصيص ! تفجر في الإنسان طاقاته الفكرية الكامنة ! وتخلصه من أساليب التفكير التقليدي الجامد ، وتسمو به بعيداً عن مصالحه الانانية ، ومظاهره الشخصية ، واهتماماته الفردية التافهة الوقتية ، التي هي الى النزوعات البرجوازية اقرب ، وعن طموحات الجماهير أبعد .

نريد مساهمات جادة من علماء الأمة ، واهتمامات فائقة من مفكرها ، نريد تظافراً فكرياً جاداً ومتناسقاً ، يبدأ من البيت ، وينتهي في أجهزة الدولة المختلفة ، لايجاد المواطن الإنسان ، الذي يخلص في عمله بلا مراقبة ، ويتعامل مع الآخرين ، عبر جسور الثقة ، وينظر الى مهمته ، نظرتين ! الأولى : تعود عليه بمردود اقتصادي جيد ، والثانية ، تعود على المجتمع ، بفائدة عامة ! . ان غرس هذه القيم ، كفيل في استغلال ملايين الساعات المهدورة في المقاهي ومنتديات المتعة غير البريئة ، وتحويلها الى عمل نافع للفرد والمجتمع ، وبذلك سيكون الوقت سيقاً لنا ، لا علينا ، فهل اقترح الغاء النرد والدومينو ، . . . وایجاد المكتبة الخاصة بالمقهى ، مع بقية وسائل شحذ الفكر من سطرنيج او غير ذلك ، ليجد خامل الذهن ، نفسه محاصراً بالثقافة وعناصرها من كل جانب ؟ .

لعل البعض سيصممني بالمثالية ! . . لكنها - على أية حال - محاولة لا تخلو من أمل ! .

الهوامش

- ١- حارم مشاي : فلسفة الاستقلال الثقافي . مقال منشور في : اتفاق عربية . العدد ١٠٠ لسنة ١٩٧٥ كانون الأول . ص ١١٩ العدد الثاني . وكذلك راجع ص ٨ من مقدمة مجلة من مجلة الكتاب القدادية . الصادر في سربس الثاني لسنة ١٩٧٢ . سجل من ١٦٠-١٥٠ من أصل المحلة .
- ٢- اتفاق عربية ص ١١١ العدد الثاني عدد ١ لسنة ١٩٧٥ . والممثل ص ٨ .
- ٣- كذلك ص ١١١ العدد الثالث .
- ٤- د. ياسين خليل : حديث منشور في جريدة البلد القدادية بتاريخ ١٩٦٥/٨/٩ من اعمية الفلسفة و الحتم وضرورة تدريسها في الاعدادية . كذلك .
- ٥- د. ياسين خليل : راجع النساب والنباتات العربية .
- ٦- راجع د. محمد الهادي : فلسفة / حاتم بغداد . دراسات خاص العدد ١٩٧٢ .
- ٧- د. محمد الهادي : بحث عنوان : الفلسفة من العاصم والنمسا . نشر في مجلة الثقافة الجديدة العدد ١٩٧٢ في عدد حزيران ١٩٧٢ العدد ١٩ ص ٢٨-٦٨ .
- ٨- مني الحاربي : بحث عنوان : التراث القومي : منشور في مجلة الثقافة الجديدة القدادية عدد ٥٠ : سربس ١٩٧٢ ص ١١١ .
- ٩- ايضاً ص ١٢٥ .
- ١٠- حارم مشاي : سبب مجلة الكتاب القدادية ص ١٠٠ في سربس الثاني ١٩٧٥ .
- ١١- قارن بين ما ورد في سجل مجلة الكتاب ص ٨-٧ وبين ما منشور في اتفاق عربية ص ١١٩ وحس ١٢١ .
- ١٢- مشاي : اتفاق عربية عدد ١ ص ١١٨ لسنة ١٩٧٥ .
- ١٣- ايضاً ص ١١٨-١١٩ .
- ١٤- د. يحيى عويدي : حياض فلسف القاهرة ١٩٦٢ .
- ١٥- د. محمد مهدي : محاضرة القيت على طلبة قسم الفلسفة . كلية الاداب - جامعة بغداد . مطبوع ٢ لسنة ١٩٧٥ .
- ١٦- محمد السامرائي : مقال بعنوان : الثقافة النورية بين الرمي والعارس . جريدة الثورة العراق . العدد ٢٢٦٨ و ١٩٧٥/١٢/٢٨ بغداد .
- ١٧- احسبنا الاستاذ د. محمد الحاربي - رئيس قسم الفلسفة في جامعة الرباط ، ان طالب الاعدادية الادبي يدرس اسسوما ١٨١ ساعات فلسفة ، والعلمي ٢٠١ ساعات . ويحتل القسم هناك مركز الصدارة في البول ، تليه الطبية والهندسة وغيرها . ومثل هذا في الجزائر وتونس ومصر .
- ١٨- مثل د. محمد الحاربي ود. علي سامي التشار من المغرب ، والفنوني من تونس وايو ريان من مصر .
- ١٩- راجع مقدمة طريق الفيلسوف لـ جان فال ترجمة د. احمد حمدي محمود . مراجعة د. ابو العلا ماضي . مؤسسة محل العرب - سلسلة الالف كتاب . القاهرة ١٩٦٧ . وراجع : اتفاق المقدمة . لـ وايت الاس وجماعة . جامعة من الاسئلة ماشراف عبد الهادي الحاربي نشر دار مداه القاهرة . بيروت . وراجع مني الحاربي : في الفكر الذي لا يفرق العدد ١ لسنة ١٩٦٥ تحليل اتفاق المعرفة . وراجع اوزوالد اشكلر : معجم العرب .